مع تحيات قبسات من هنا وهناك

رقم ((20))

هدى الحق

إعداد

الشيخ عبدالنبي عبدالمجيد النشابة

في إحدى قرى ا لجنوب التونسي و خلال حفل زفاف كانت النساء يتحدثن عن فلانة زوجة فلان, و استغربت المرأة العجوز الكبيرة التي كانت تجلس وسطهن و تسمع حديثهن أن تكون فلانة قد تزوجت فلانا و لما سألناها عن سبب استغرابها أخبرتهن بأنها أرضعت الاثنين فهما أخوان من الرضاعة , و نقل النسوة هذا النبأ العظيم إلى أزواجهن و تثبت الرجال فشهد والد المرأة بأن ابنته أرضعتها تلك العجوز المعروفة لدى الجميع بأنها مرضعة كما شهد والد الزوج بأن ابنه أرضعته نفس المرضعة , و قامت قيامة العشيرتين و تقاتلوا بالعصي كل منهما تتهم الأخرى بأنها سبب الكارثة التي سوف تجرهم إلى سخط االاه و عقابه و خصوصا و أن هذا الزواج مر عليه عشرة أعوام و أنجبت المرأة خلالها ثلاثة أطفال و قد هربت عند سماعها الخبر إلى بيت أبيها و امتنعت عن الأكل و الشراب و أرادت الانتحار لأنها لم تتحمل الصدمة و كيف أنها تزوجت من أخيها وولدت منه و هي لا تعلم , و سقط عدد من الجرحى من العشيرتين و تدخل أحد الشيوخ الكبار و أوقف المعارك و نصحهم بأن يطوفوا على العلماء ليستفتوهم في هذه القضية عسى أن يجدوا حلا.

فصاروا يتجولون في المدن الكبرى المجاورة يسألون علماءها عن حل لقضيتهم وكلما اتصلوا بعالم و أطلعوه على الأمر أخبرهم بحرمة الزواج و ضرورة تفريق الزوجين إلى الأبد و تحرير رقبة أو صيام شهرين إلى غير ذلك من الفتاوى.

ووصلوا إلى قفصه و سألوا علماءها فكان الجواب نفس الشيء , لأن المالكية كلهم يحرمون الرضاعة ولو من قطرة واحدة اقتداء بالإمام مالك الذي قاس الحليب على الخمر إذ أن (ما أسكر كثيرة فقليله حرام) , فتحرم الرضاعة ولو من قطرة ولو من قطرة واحدة من الحليب , و الذي وقع أن أحد الحاضرين اختلى بهم و دلهم على بيتي قائلا لهم : اسألوا التيجاني في مثل هذه القضايا فإنه يعرف كل المذاهب , و قد رأيته يجادل هؤلاء العلماء عدة مرات فيبزهم بالحجة البالغة.

هذا ما نقله الي زوج المراة حرفيا عندما أدخلته إلى المكتبة و حكى لي كل القضية بالتفصيل من أولها إلى آخرها و قال ((يا سيدي أن زوجتي تريد الانتحار و أولادي مهملين و نحن لانعرف حلا لهذة المشكلة وقد دلونا عليك و قد استبشرت خيرا لما رأيت عندك هذه الكتب التي لم أشهد في حياتي مثلها فعسى أن يكون الحل عندك)).

أحضرت له القهوة و فكرت قليلا ثم سالته عن عدد الرضعات التي رضعها هو من المرأة فقال : لا أدري غير أن زوجتي رضعت منها مرتين أو ثلاث و قد شهد أبوها بأنه حملها مرتين أو ثلاث مرات لتلك العجوز المرضعة , فقلت إذا كان هذا صحيحا فليس عليكما شيء و الزواج صحيح و محلل , و ارتمى , المسكين على يقبل رأسي و يدي و يقول بشرك االاه بالخير لقد فتحت أبةاب السكينة أمامي , و نهض مسرعا و لم يكمل قهوته و لا استفسر مني ولا طلب الدليل غير أنه استأذن للخروج حتى يسرع فيبشر زوجته و أولاده و عشيرته.

لكنه رجع في اليوم التالي ومعه سبعة رجال و قدمهم إلي قائلا : هذا والدي و هذا والد زوجتي والثالث عمدة القرية و الرابع إمام الجمعة و الجماعة و الخامس هو المرشد الديني و السادس هو مدير المدرسة ,و قد جاؤوا يستفسرون عن قضية الرضاعة وبما حللتها؟

و أدخلت الجميع الى المكتبة و كنت أتوقع جدالهم و أحضرت لهم القهوة و رحبت بهم : قالوا إنما جئناك نناقشك عن تحليلك الرضاعة و قد حرمها االاه في القرآن , وحرمها رسوله بقوله: يحرم بالرضاعة مايحرم بالنسب , و كذلك حرمها الإما مالك.

قلت : يا سادتي أنتم ما شاء االاه ثمانية و أنا واحد فإذا تكلمت مع الجميع فسوف لن أقنعكم و تضيع المناقشة في الهامشيات , وإنما أقترح عليكم اختيار أحدكم حتى اتناقش معه و أنتم تكونون حكما بيني و بينه !

و أعجبتهم الفكرة و استحسنوها , وسلموا أمرهم إلى المرشد الديني قائلين بأنه أعلمهم و أقدرهم , وبدأ السيد يسألني كيف أحلل ما حرم االاه و رسوله و الأئمة؟!

قلت أعوذ باالاه أن أفعل ذلك ! ولكن االاه حرم الرضاعة بآية مجملة و لم يبين تفصيل ذلك و إنما أوكل ذلك إلى رسوله فأوضح مقصود الآية بالكيف و الكم.

قال : فإن الإمام مالك يحرم الرضاعة من قطرة واحدة.
قلت: أعرف ذلك , ولكن الإمام مالك ليس حجة على المسلمين و إما فماهو قولك بالأئمة الآخرين ؟
أجاب : رضي االاه عنهم و ارضاهم فكلهم من رسول االاه ملتمس.
قلت : فما هي إذن حجتك عند االاه في تقليدك الإمام مالك الذي اليخالف رأيه نص الرسول (ص).
قال محتارا : سبحان االاه أنا لا أعلم بأن الغمام مالك إمام دار الهجرة يخالف النصوص النبوية , و تحير الحاضرون من هذا القول , و استغربوا مني هذه الجرأة على الإمام مالك و التي لم يعهدوها من قبل في غيري و استركت قائلا : هل كان الإمام مالك من الصحابة ؟ قال : لا , قلت : هل كان من التابعين ؟ قال : لا , وإنما هو من تابعي التابعين. فأيهما أقرب هو ام الإمام علي بن أبي طالب؟

قال الإمام علي أقرب فهو من الخلفاء الراشدين , وتكلم أحد الحاضرين قائلا: سيدنا علي كرم االاه وجهه هو باب مدينة العلم. فقلت : فلماذا تركتم باب مدينة العلم واتبعتم رجلا ليس من الصحابة و لا من التابعين و إنما و لد بعد الفتنة و بعدما أبيحت مدينة رسول االاه لجيش يزيد و فعلوا و قتها ما فعلوا و قتلوا خيار الصحابة و انتهكوا فيها المحارم , وغيروا سنة الرسول ببدع ابتدعوها , فكيف يطمئن الإنسان بعد ذلك إلى هؤلاء الأئمة الذين رضيت عنهم السلطة الحاكمة لأنهم أفتوها بما يلائم أهواءهم.

و تكلم أحدهم و قال : سمعنا أنك شيعي تعبد الإمام عليا فلكزه صاحبه الذي كان بجانبه لكزة اوجعته و قال له : أسكت أما تستحي أن تقول مثل هذا القول لرجل فاضل مثل هذا و قد عرفت العلماء و حتى الآن لم تر عيني مكتبة مثل هذه المكتبة , و هذا الرجل يتكلم عن معرفة ووثوق مما يقول!.

اجبه قائلا : أنا شيعي هذا صحيح ولكن الشيعة لا يعبدون الإمام عليا و إنما عوض أن يقلدوا الإمام مالك فهم يقلدون عليا لأنه باب مدينة العلم حسب شهادتكم , قال المشد الديني : و هل حلل الإمام علي زواج الرضيعين؟ قلت : لا و لكنه يحرم ذلك إذا بلغت الرضاعة خمس عشر رضعة مشبعات و متواليات , أو ما أنبت لحما و عظما. وتهلل وجه والد الزوجة وقال : الحمد ل االاه فابنتي لم ترضع إلا مرتين أو ثلاث مرات فقط , و إن في قول الإمام علي هذا مخرجا لنا من هذه الورطة و رحمة لنامن االاه بعد أن يئسنا.

فقال المرشد: أعطنا الدليل على هذا القول حتى نقتنع ؛ فأعطيتهم كتاب منهاج الصالحين لسيد الخوئي , وقرأ هو بنفسه عليهم باب الرضاعة , وفرحوا بذلك فرحا عظيما و خصوصا الزوج الذي كان خائفا أن لا يكون لدي الدليل المقنع و طلبوا مني إعارتهم الكتاب حتى يحتجوا به في قريتهم فسلمته إليهم و خرجوا مودعين داعين معتذرين.

و بمجرد خروجهم من بيتي التقى بهم أحد المناوئين وحملهم إلى بعض علماء السوء فخوفوهم و حذروهم بأني عميل لإسرائيل و ان كتاب منهاج الصالحين الذي أعطيتهم إياه كله ضلالة و أن أهل العراق هم أهل الكفر و النفاق و أن الشيعة مجوس يبيحون نكاح الأخوات فلا غرابة إذن في إباحتي لهم نكاح الأخت من الرضاعة إلى غير ذلك من التهم و الأراجيف و مازال بهم يحذرهم حتى ارتدوا على أعقابهم و هدى الحق.....4

أنقلبوا بعد قناعتهم , و اجبروا الزوج أن يقوم بقضية عدلية في الطلاق لدى المحكمة الغبتدائية في قفصة و طلب منهم رئيس المحكمة أن يذهبوا للعاصمة و يتصلوا بمفتي الجمهورية ليحل هذا الإشكا , وسافر الزوج وبقي هناك شهرا كاملا حتى تمكن من مقابلته و قص عليه قصته من اولها لآخرها و سأله مفتى الجمهورية عن العلماء الذين قالوا بحلية الزواج و صحته و أجاب الزوج بأنه ليس هناك من قال بحليته غير شخص واحد هو التيجاني السماوي و سجل المفتي اسمي وقال للزوج إرجع أنت و سوف أبعث أنا برسالة إلى رئيس المحكة في قفصة , وبالفعل جائت الرسالة من مفتي الجمهورية و اطلع عليها وكيل الزوج و أعلمه بأن مفتي الجمهورية حرم ذلك الزواج.

هذا نا قصه علي زوج المرأة الذي بدا عليه الضعف و الإرهاق من كثرة التعب و هو يعتذر إلي لما سببه لي من إزعاج و حرج , فشكرته على عواطفه متعجبا مكيف يبطل مفتي الجمهورية الزواج القائم في مثل هذة القضية , وطلبت منه أن يأتيني برسالته التى بعثها إلى المحكمة حتى أنشرها في الصحف التونسية وأبين أن مفتي الجمهورية يجهل المذاهب الإسلامية و لايعرف أختلافهم في قضية الفقهي في مسألة الرضاعة.

و قال الزوج بأنه لايمكنة أن يطلع على ملف قضيته فضلا عن ان ياتيني برسالة منه , و افترقنا.

و بعد بضعة أيام جاءتني دعوة من رئيس المحكمة وهو يأمرني بإحضار الكتاب و الأدلة على عدم بطلان ذلك الزواج بين (الرضيعين) ! ,وذهبت محملا بعدة مصادر انتقيتها مسبقا ووضعت في كل منها بطاقة في باب الرضاعة ليسهل تخريجة في بحظة واحدة , و ذهبت في اليوم و الساعة المذكورة و استقبلني كاتب الرئيس و ادخلني الى مكتب الرئيس و فوجئت برئيس المحكمة الإبتدائية و رئيس محكمة الناحية ووكيل الجمهورية و معهم ثلاثة أعضاء و كلهم يرتدون لباسهم الخاص للقضاء و كأنهم في جلسة رسمية , ولاحظت أيضا أن زوج المرأة يجلس في آخر القاعة قبالهم , و سلمت على الجميع فكانوا كلهم ينظرون إلي بإشمئزاز و إحتقار و لما حلست كلمني الئيس بلهجة خشنة قائلا:

- أنت هو التيجاني السماوي ؟ قلت نعم.
- قال: انت الذي أفتين بصحة الزواج في هذة القضية ؟
- قلت : لا لست مفتيا , ولكن الأئمة و علماء المسلمين هم الذين أفتوا بحليته و صحته!
- قال : ومن أجل ذلك دعوناك , وأ،ت الآن في قص الإتهام فإذا لم تثبت دعواك بالدليل فسوف نحكم بسجنك و سوف لن تخرج من هنا إلا إلى السجن.

- و عرفت وقتها انني بالفعل في قفص الإتهام , لا لأني أفتيت في هذه القضية , و لكن لأن بعض علماء السوء حدث هؤلاء الحكام بأنني صاحب فتنه و أنني أسب الصحابة و أبث التشيع لآل البيت النبوي , وقد قال له رئيس المحكمة إذا أتيتني بشاهدين ضده فسوف ألقيه في السجن.

أضف إلى ذلك فأن جماعة الإخوان المسلمين استغلوا هذه الفتوى وروجوا لدى الخاص و العام بأنني أبيح نكاح الاخوات و هو قول الشيعة على زعمهم!

كل ذلك عرفته ن قبل و تيقنته عندما هددني رئيس المحكمة بالسجن فلم يبقى أمامي إلا التحدي و الدفاع عن نفسي بكل شجاعة فقلت للئيس:

- هل لي أن اتكلم بصراحة و بدون خوف , قال:
- نعم تكلم فأنت ليس لك محام ... قلت:

- قبل كل شيء أنا لم أنصب نفسي للإفتاء , ولكن ها هو زوج المرأة أمامكم فاسئلوه , فهو الذي جائني إلى بيتي يطرق بابي و يسألني , فكان واجبا علي أن أجيبة بما أعلم و قد سألته بدوري عن عدد الرضعات ولما أعلمني بأن زوجته لم ترضع غير مرتين أعطيته و قتها حكم الغسلام فيها , فلست من المجتهدين و لا من المشرعين.

قال الرئيس عجبا : أنت الآن تدعي أنك تعرف الإسلام و نحن نجهله ! قلت : أستغفر االاه أنا لم أقصد هذا , ولكن كل الناس هنا يعرفون مذهب الغمام مالك و يتوقفون عنده , وأنا فتشت في كل المذاهب ووجدت حلا لهذه القضية.

قال الرئيس : أين وجدت الحل ؟ قلت:

– قبل كل شيء هلي أن أسألكم سؤالا ياسيدي الرئيس ؟

- قال إسأل كما تريد .
- قلت ما قولكم في المذاهب الغسلامية؟
- قال : كلها صحيحة , فكلهم من رسول االاه ملتمس , وفي إختلافهم رحمة,
- قلت : فرحموا إذن هذا المسكين ((مشيرأ إلى زوج المرأة)) الذي قضى الآن أكثر من شهرين وهو مقارق لزوجه وولده بينما هناك من الذاهب الإسلامية من حل مشكلته.

فقال الرئيس مغضبا:

- هات الدليل و كفاك تهريجا , نحن سمحنا لك بالدفاع عن نفسك فأصبحت محاميا لغيرك.

فأخرجت له من حقيبتي كتاب منهاج الصالحين لبسيد الخوئي و قلت : هذا مذهب أهل البيت و فيه الدليل و قاطعني قائلا : دعنا من مذهب أهل البيت فنحن لا نعرفه و لانؤمن به.

كنت متوقعا هذا الرد ولذلك أحضرت معي بعد البحث و التنقيب عدة مصادر لأهل السنة و الجماعة و كنت رتبتها حسب علمي فوضعت البخاري في المرتبه الأولى ثم صحيح مسلم و بعده كتاب الفتاوى لمحمود شلتوت و كتاب بداية المجتهد و نهايه المقتصد لابن رشد و تاب زاد المسير في علم التفسير لابن الجوري و عدة مصادر أخرى من كتب (اهل السنه) , و لما رفض الرئيس أن ينظر في كتاب السيد الخوئي سألته عن الكتب التي يثق بها , قال البخاري ومسلم . و أخرجت صحيح البخاري و فتحته على الصفحة المعنية و قلت: تفضل ياسيدي اقرأ.

- قال : اقرأ أنت ؟ و قرأت : حدثنا فلان عن فلان عن عائشة أم المؤمنين قالت توفي رسول االاه (ص) و لم يحرم من الرضعات إلا خمسة فما فوق.

و أخذ الرئيس مني الكتاب و أعطاه إلى وكيل الجمهورية بجانبه و قرأ هو الآخر و ناوله لمن بعده في حين أخرجت صحيح مسلم و أطلعته على نفس الأحاديث ثم فتحت كتاب الفتاوى لشيخ الأزهر شلتوت و قد ذكر هو الآخر اختلافات الأئمة في مسألة الرضاعة فمنهم من ذهب إلى القول بأن المحرم مابلغ خمسة عشر رضعة و منهم من قال بسبعة منهم من حرم فوق الخمسة عدا مالك الذي خالف النص و حرم قطرة واحدة ثم قال شلتوت: و أنا أميل إلى أوسط الآراء فأقول سبعة فما فوق , وبعد ما اطلع رئيس المحكمة على كل ذلك قال : يكفي ثم إلتفت الى زوج المرأة و قال له: اذهب الآن و أتني بوالد زوجتك ليشهد أمامي بأنها رضعت مرتين أو ثلاث و سوف تأخذ زوجتك معك هذا اليوم...

وطار المسكين فرحا , واعتذر وكيل الجمهورية و بقية الأعضاء الموجودين للإلتحاق بأعمالهم و أذن لهم الرئيس , ولما خلا بنا المجلس إلتفت إلي معتذرا و قال: سامحني يا أستاذ لقد غلطوني فيك و قالوا فيك أشياء غريبة و أنا الآن عرفت بأنهم حاسدون ومغرضون يريدون بك شرا.

و طار قلبي فرحا بهذا التحول السريع وقلت : الحمد ل االاه الذي جعل نصري على يديك ياسيدي الرئيس , فقال : سمعت بأن عندك مكتبة عظيمة فهل يوجد فيها كتاب حياة الحيوان الكبرى للدميري؟

قلت : نعم , فقال هل تعيرني إياه , فقد مضى عامان و أنا أبحث عنه , قلت : هو لك ياسيدي متى أردت , قال: هل عندك وقت يسمح لك بالمجيء إلى مكتبتي لنتحدث و أستفيد منك. قلت : أستغفر االاه فأنا الذي أستفيد منك , فأنت أكبر مني سنا و قدرا , وعندي أربعة أيام راحة في الأسبوع و أنا رهن إشارتك.

و اتفقنا على يوم السبت من كل اسبوع لأنه ليس له جلسات للمحكمة في ذلك اليوم. و بعدما طلب مني ان أترك له كتاب البخاري و مسلم و كتاب الفتاوى لمحمود شلتوت لكي يحرر منهم النص قام بنفسة و أخرجني من مكتبة كودعا.

و خرجت فرحا أحمد االاه سبحانه على هذا النصر و قد دخلت خائفا مهددا بالسجن و خرجت و قد إنقلب رئيس المحكمة إلى صديق حميم يحترمني و يطلب مني مجالسته ليستفيد مني. إنها بركات طريق أهل البيت الذين لا يخيب من تمسك بهم و يأمن من تمسك بهم و يأمن من لجأ إليهم.

و تحدث زوج المرأة في قريته و شاع الخبر في كل القرى المجاورة بعدما رجعت المرأة الى بيت زوجها و انتهت القضية بحلية الزواج , فأصبح الناس يقولون بأني أعلم من الجميع و أعلم حتى من مفتي الجمهورية.

و قد جاء زوج المرأة إلي البيت ومعه سيارة كبيرة و دعاني إلى القرية أنا و كل عائلتي و أعلمني بأن كل الأهالي ينتظرون قدومي و سيذبحون ثلاثة عجول لإقامة الفرح و اعتذرت إليه بسبب انشغالي في قفصة و قلت له : سوف أزوركم مرة أخرى إن شاء االله. و تحدث رئيس المحكمة إلى أصدقائه و اشتهرت القضية ورد االله كيد الكائدين و جاء بعضهم معتذرين و قد فتح االله بصيرة البعض منهم فاستبصرو و أصبحوا من المخلصين , ذلك فضل االله يؤتيه من يشاء و االله ذو الفضل العظيم.

و آخر دعوانا أن الحمد ل االله رب العالمين و صلى االله على سيدنا محمد و على آله الطيبين الطاهرين.

قال الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله

"ما تصدق الناس بصدقة مثل علم ينشر"

بحار الأنوار / كتاب العلم / حديث 8 مجلد 87

ساهموا معنا في نشر هذه القبسة

http://www.alnashaba.net

Email: qabasat@hotmail.com